التأليف المعجمي التراثي المتخصّص

-عوامل نشأته ومراحل تطوّره-

حاج هــنّي محمد
جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)

Abstract:

The ancient Arabs founded a well developed scientific civilization based on different sorts of knowledge in various fields. This development was accompanied by an increase in the number of scientific terms reflecting the newfangled concepts in sciences and arts. As result, it became so necessary to compile Specialized Dictionary which showed clearly the efforts of ancient Arabs in specialized lexicography. So what are the factors that helped in the appearance of this lexical type in Arab culture, and what are the phases of its formation?

Key Words: The ancient Arabs- Terms- Specialized Dictionary- lexicography.

Résumé:

Les anciens arabes ont connus une parchemineuse civilisation lorsqu'ils ont constitué des sciences et arts dans plusieurs domaines, on accompagnant d'un développement des termes exprimant des nouveaux concepts ; tous çà a poussez les saveurs d'adaptés une nouvelle méthode dans la publication lexicale. permis de montré leur efforts dans lexicographie spécialisée, quel sont les éléments d'existences de ce type lexicale dans la culture arabes? et quel est les différents étapes de sa formation?

Mots clés: Les Anciens Arabes-Termes- Dictionnaire Spécialisé- lexicographie.

ملخّص:

لقد أسّس العرب القدامى حضارةً علميةً راقيةً؛ بُنيت على معارف شتى في مختلف المجالات، وصاحب هذا الازدهار ارتفاع في عدد المصطلحات العلمية المعبّرة عن المفاهيم المستحدثة في العلوم والفنون، كانت الحاجة ماسة لجمعها-لاحقاً- في معاجم اصطلاحية، تبرز بوضوح جهود العرب القدامى في مجال الصناعة المعجمية المتخصّصة، فما هي عوامل ظهور هذا اللون المعجمي في الثقافة العربية؟ وما هي أهم مراحل تشكّله؟

الكلمات المفتاحية: العرب القدامى- المصطلحات- المعجم المتخصّص- صناعة المعاجم.

مقدمة:

لقد تطورت الدراسات العربية القديمة في مختلف الميادين تطورًا كبيرًا، ونشأت جراء ذلك علوم متنوعة في مختلف المجالات، تفرّعت بدورها لتشمل مختلف مناحي الحياة بحسب تعدد الحاجات، وتباين المطالب، وكان من الطبيعي أن يصحب هذا الاتساع في العلوم والفنون نمو في المصطلحات التي تعبّر عن المفاهيم الكثيرة المستجدة، وكان ذلك حريًا بأن يحفز العلماء على تبني طريقة جديدة في التأليف تتناسب والنقلة الحضارية للأمة؛ فلقد ظهرت عدة معاجم متخصّصة في اصطلاحات العلوم، سواء أكانت مقتصرة على مجال بذاته، أو كانت موسوعية اشتملت على مجالات معرفية عديدة.

1- مفهوم المعجم التراثي المتخصّص:

يصنّف المعجميون المعاجم حسب العموم والخصوص إلى صنفين هما: المعاجم العامّة والمعاجم المتخصّصة[1]، وتتناول المعاجم العامّة ألفاظ اللغة المشتركة، فلا يقتصر "محتواها على علم بعينه أو فنّ بذاته"[2]، ترتب محتواها وفق ترتيب معيّن، قد يكون هجائيّا أو موضوعيّا، وهذا النوع أكثر الصنفين عددًا وأوسعهما انتشارًا، وأشهرهما ذكرًا بين عامة الناس وخاصتهم.

ويقابل المعاجم العامّة المعاجم المتخصّصة أو المختصّة أو الخاصّة، ويسمّيها بعضهم معاجم المصطلحات، و"هذا الصنف من المعاجم ليس بالقليل أو النادر في العربيّة، لكنّه أقلّ شهرةً فيها من معاجم اللغة العامّة، فإن هذه قد اشتهرت وشاع ذكرها وذكر مؤلفيها؛ لحاجة الناس إليها وكثرة اعتمادهم عليها، وأمّا المعاجم المختصّة فلم تكن في القديم معروفةً مشهورةً إلاّ بين جمهور ضيّق هو جمهور العلماء والمتخصّصين في العلوم أو الفنون التي ألفت في مصطلحاته"[3].

فالمعجم المتخصّص هو "مدوَّن مُشتمِل على جزء قلّ أو كثر من مصطلحات علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو مصطلحات جملة من العلوم والفنون"[4]، فهو يهتمّ بمجال معيّن من مجالات المعرفة؛ إذ يعالج شريحةً بعينها من النشاط الفكري علميًّا كان أم أدبيًّا أم فلسفيًا[5].

2- أنواعه:

يأتي المعجم المتخصّص التراثي على أحد النوعين:

أ- **النوع الأوّل: المعاجم المختصّة بفرع واحد من فروع المعرفة:** والتي تكتفي بمصطلحات هذا العلم، ومن نماذجها قديمًا: مفردات القرآن للراغب الأصبهاني، المعرب للجواليقي.

ب- **النوع الثاني: المعاجم المختصّة بمصطلحات مجموعة من العلوم:** وهي معاجم موسوعية تضم بين دفتيها رصيداً مصطلحياً متنوعاً، فكما تشتمل على علوم العرب، كالفقه والتفسير واللغة والنحو، تحتوي كذلك العلوم الدخيلة المترجَمة عن الأمم الأخرى، كالطب والفلسفة والمنطق، ومن أمثلتها في القديم: مفاتيح العلوم للخوارزمي، التعريفات للجرجاني.

3- مجالاته:

يتوزّع التأليف المعجمي التراثي المتخصّص على عدّة مجالات معرفية، حدّدها أهل الاختصاص في أربعة حقول، هي[6]:

أ- الألفاظ اللغوية:

- الأضداد: أضداد قطرب (206هـ).
- المجاز: أساس البلاغة للزمخشري (538هـ).
- المعرّبات: المعرب من الكلام الأعجمي لابن منصور الجواليقي (539هـ).

ب- المصطلحات:

- علوم وفنون: مفاتيح العلوم للخوارزمي (387هـ).
- مفاهيم عامة: التعريفات للشريف الجرجاني (816هـ).

ج- الأعلام:

- أعلام عامة: وفيات الأعيان لابن خلكان (681هـ).
- أعلام خاصة: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (852هـ).

د- آثار:

- مؤلَّفات: الفهرست لابن النديم(380هـ).
- بلدان: معجم البلدان لياقوت الحموي (626هـ).
- معادن: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاسي (651هـ).
- نبات: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار(646هـ).

يتضح مما سلف أنّ أسلافنا القدامى قد أولوا أهمية كبيرة للمعاجم المتخصّصة، وسلكوا فيها مناهج مختلفة، وصنفوا في جميع الموجودات، أسماء، ومصطلحات، وآثار.

4- عوامل نشأته:

تباينت أسباب نشأة المعاجم المتخصّصة عند العرب قديمًا، فلقد ظهر هذا النوع من التأليف نتيجة عدة عوامل، أهمّها:

أ- العامل الديني:

لقد أنزل اللّه تعالى القرآن الكريم على الرّسول- صلّى اللّه عليه وسلّم- قصد هداية البشر إلى خالقهم، وإلى الخير العظيم، فكان هذا الكتاب هدايةً ورحمةً وشفاءً، ولذلك دعا إلى العلم والمعرفة؛ فأوّل آية أنزلت قوله تعالى:﴿اِقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[7]، فقد أحصى المهتمون بعلوم القرآن أنّ كلمة "علم" ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم ما يزيد على سبعمائة وثمانين مرّة[8].

وهذا ما خلق جوّاً معرفيّاً، ومناخاً علميّاً يدعو إلى التدبّر والتأمّل؛ مما سمح للعلماء بابتكار علوم شتّى، منها من اختصّ بعلوم القرآن (كالتفسير، وأسباب النزول، والقراءات)؛ ومنها ما ارتبط بالإنسان (كعلوم اللغة، والتاريخ، والفلسفة)، وحتّى تلك التي تناولت الكون بظواهره المختلفة (كالرياضيات، والطبيعيّات، والطب، والكيمياء، والفلك).

وطبيعيّ أن يعتمد كلّ علم من هذه العلوم على منظومة اصطلاحيّة تحدد مفاهيمه، كانت الحاجة ماسة لرصدها في معاجم متخصّصة لاحقًا، نتيجة تشعب المعارف، وتداخلها.

ب- العامل اللغوي:

ويتمثّل في التغيّر الدلالي الذي أصاب ألفاظ العربية بنزول القرآن الكريم؛ إذ أصبح للمفردة معنيان، أحدهما لغويّ عامّ، والآخر اصطلاحي خاصّ، يقول ابن فارس: "فكان ممّا جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق..."[9]؛ فهذه الكلمات جميعها عربية الأصل كانت لها دلالات غير التي حُمّلت إيّاها، وهكذا تبين أنّ المسلمين أدركوا أنّ هناك معانٍ إسلاميّة كوّنها القرآن الكريم، وأنّ بعض الكلمات قد تحوّل معناها عمّا كان عليه قبل نزول كتاب الله تعالى، وهذه المعاني الجديدة إنّما عُرفت مع القرآن الكريم نتيجة استعماله لها في مواقعها وسياقاتها الجديدة[10]؛ وهذا ما لاحظه الجاحظ حينما رأى أنّ: "المتكلمين اشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكلّ خلف، وقدوة لكلّ تابع، ولذلك قالوا العرض والجوهر... كما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيدة وقصار الأرجاز ألقابًا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان لتلك الأسماء"[11]. وما دامت اللغة وُجدت للتعبير عن الفكر؛ فإنّ المتكلم العربي وضع ألفاظاً مناسبة للتعبير عما استجد في شتى مناحي الحياة.

ج- العامل السياسي:

لقد أدّى اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة إلى ظهور مصطلحات إداريّة وماليّة وسياسيّة تواكب مستجدّات المرحلة؛ كمصطلحات الخلافة والإمارة، والدولة، والشرطة والدينار، والبريد والديوان، والجباية والراتب وغيرها[12]، واستمرت اللغة العربية خلال فترات الحكم الأموي والعبّاسي تتلقّى زاداً مصطلحيّاً في كافّة جوانب الإدارة والحكم والسياسة تماشيًا مع التطوّر الحضاري والسياسي لنظام الحكم في الدولتين الناشئتين.

د- العامل الاجتماعي:

كان من مظاهر اتّساع الفتح الإسلامي الكبير اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأعجميّة الأخرى، فظهر في اللغة العربية ما عرف بالاقتراض اللغوي[13]؛ نتيجة تأثر العرب بحضارات الشعوب الأخرى، "وما نتج عن هذا الاحتكاك من ظهور ألفاظ لم يكن للعرب عهد بها من قبل في ميادين الاقتصاد والصناعة والزراعة والعلوم والفلسفة ومختلف مناحي الحياة"[14]، إذ اندفع العرب يطلبون كلّ ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية كانت تنقصهم، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني واستغلال الأرض.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعدّاه ليشمل العلوم النظرية البحتة؛ فعمدوا إلى ترجمة مختلف علوم العجم[15]، ومن المعلوم أنّ أكثر الألفاظ التي احتاج العرب إلى تعريبها هي ألفاظ الحضارة والعلوم والفنون، ويُستثنى من ذلك مصطلحات علوم الفقه والحديث والتفسير وما يليها من العلوم النقليّة[16].

ه- العامل الثقافي:

ويتمثّل في حركة الترجمة التي كانت بداياتها مع خالد بن يزيد بن معاوية (ت75هـ) الذي "كان أوّل من ترجم كتب النجوم والطبّ والكيمياء"[17]، كما اهتمّ الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز(ت101هـ) بالعلوم؛ إذ تُرجمت له بعض الكتب الطبيّة[18].

واتسعت الترجمة في عهد العباسيّن؛ فكان عصر المأمون من أكثر العصور عنايةً بترجمة العلوم إلى العربية؛ فقد نُقلت في عهده كتب كثيرة في الطبّ، والفلسفة، والرياضيات، والكيمياء، والصيدلة، والطبيعة، والجغرافية؛ مما سمح بإضافة مئات الألفاظ الفلسفية والطبيّة، والكيمياويّة والرياضية، فاكتسبت اللغة العربية بذلك مادّةً مصطلحيّةً غزيرةً مكّنت المتكلمين والفلاسفة والعلماء من تناول مسائل علومهم بلغة دقيقة، وألفاظ دالّة على المعاني المقصودة[19].

وكان "من الطبيعيّ أن تؤدي ترجمة هذه العلوم إلى خلق مصطلحات علميّة كثيرة دخلت اللغة العربية، واندمجت في جملة ألفاظنا، وأُدمج معظمها في معاجمنا القديمة"[20]، ففي مجال الطبّ مثلا اقترض العرب عدّة مصطلحات من

لغات شتّى؛ فمن اليونانيّة: الترياق، الكيموس، بروسطاتة، البقدونس، الزيزفون، ومن الفارسيّة: البابونج، البورق، البنج، الزرجون، الزرنيخ[21].

وكلّ هذه المصطلحات ترتبط بأسماء الأمراض أو الأدوية التي لم يكن يعرفها العربيّ آنذاك، فاستفاد مؤلفو المعاجم المتخصّصة- لاحقًا- من هذه الثروة المصطلحيّة في صناعة معاجمهم، ولاسيما معاجم المفردات الطبيّة والصيدليّة التي ازدهرت بترجمة أوّل معجمين من اللغة اليونانيّة؛ ويتعلّق الأمر بــمصنَّف: "المقالات الخمس أو كتاب الحشائش" لــديوسقريدس، وكتاب "الأدوية المفردة "لجالينوس[22].

ويمكن توضيح حجم الاقتراض اللغوي في مجال الطبّ والصيدلة العربية من خلال هذه الدراسة الإحصائية التي قام بها إبراهيم بن مراد[23]:

المعجم	واضعه	مصطلحاته	المصطلح الأعجميّ	نسبة الدخيل
الأدوية المفردة	أحمد الغافقي الأندلسي (ت560هـ- 1165م)	1772	1153	%65,07
الجامع في الأدوية المفردة	ضياء الدين بن البيطار (ت646هـ- 1248م)	2353	1082	%45,98
كشف الرموز	عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت1168هـ- 1754م)	990	476	%48,08

وما هذه النسب إلاّ خير دليل عن الحاجة إلى الاقتراض من اللغات الأعجمية لملء ما في المعجم الطبي والصيدلي العربي في موضوع الأدوية المفردة من فجوات معجميّة، وما ينطبق على مصطلحات الطب ينطبق بالضرورة على باقي العلوم المنقولة إلى العربية.

وهكذا تتجلى مساهمة الترجمة في نموّ العربية، من خلال إثراء الرصيد المصطلحي، الذي ينتظم في معاجم يختصّ كل منها بحقل معرفي معين.

5- مراحل تطوره:

إنّ المعجم التراثي المتخصّص- كنظيره العام- لم يظهر للوجود دفعةً واحدةً، بل عرفت نشأته عدّة مراحل متلاحقة، ساهمت جميعها في بلورة هذا التأليف المعجمي لدى العرب القدامى.

أ- المرحلة الأولى: غريب القرآن:

يعدّ القرآن الكريم مفجّر الدراسات اللغويّة؛ فلقد "بدأت الدراسات المعجميّة العربية، ككلّ الدراسات اللّغوية عند العرب، لخدمة الدين الإسلامي، ولغرض فهم القرآن الكريم، المصدر الأوّل للتشريع الإسلامي، ودستور المسلمين"[24]؛ فاهتمّ المسلمون منذ القرن الأوّل الهجري بمفردات القرآن، وخاصّة بما سُمي منها بالغريب، فانكبّوا على تأويلها والبحث في دلالاتها اللغوية، ومن ذلك ما روي عن أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنه، أنّه سُئل عن دلالة معنى قوله تعالى:﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[25]، فقال:" أي سماء تظلني، وأيّ أرض تقلني، إن أنا قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم"[26]، وقال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما(ت68ه): "كنت لا أعرف ما﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾[27]، حتّى أتاني أعربيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما :" أنا افطرتها أي ابتدأتها"[28].

ويعدّ عبد الله بن عباس من الصحابة الأوائل الذين عنوا بتفسير القرآن الكريم؛ فقد كانت له في مجال التفسير القرآني اجتهادات لغويّة كثيرة "جعلته رائد الدراسات اللغويّة للنصوص العربية"[29]، إذ تمثّل جهوده في تفسير غريب القرآن الكريم، وشرح بعض أساليبه البداية الحقيقيّة لتأسيس المعجم العربي؛ "فقد كان يتصدّى لشرح وتفسير الغوامض، والمشكلات التي تواجه المسلمين الأوّلين في فهم كتاب الله حتّى كان يؤدّي- بحقّ- ما تؤدّيه المعجمات الموجودة بين أيدينا لطالبي الكشف عن الغامض أو المبهم من المفردات أو المعاني"[30]، من خلال ما يعطيه للكلمة الغريبة في القرآن

من معنى مستشهدًا عليه من الشعر الجاهليّ؛ فهو القائل: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"[31].

فابن عباس إذن هو الواضع الأوّل لنواة المعجم العربي من خلال تفسيره، وكان المعجم في مظهره الأوّل عبارة عن مفردة، ومعناها والشاهد عليها[32]؛ فهو "يعطي للكلمة الغريبة في القرآن معنىً، ويستشهد عليه من الشعر العربي الجاهلي، وعلى أقواله ألّفت كتب غريب القرآن، واعتمدتها المعاجم اللغوية"[33].

ويمكن تسمية عمل ابن عباس هذا عملاً معجميًّا، على الرّغم من أنّه "يمثل معجماً غير مكتوب، ولكنّه مسموع ومفهوم، فهو قد وقف على لغات العرب، وأسرارها ودلالات مفرداتها، ومعرفة غريبها ونوادرها، وعلى أشعار العرب، وخطبهم وأمثالهم، وأعانه علمه الواسع بالعربية أن يفسّر لسائليه كلمات اللغة تفسيراً دقيقاً"[34].

وممّا سبق يتجلّى دور القرآن في فهم اللغة، والوقوف على معانيها، ففهم الكتاب والسنّة فرض، ولا يتم فهمهما إلاّ باللغة العربية، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب، ومن هنا كانت الحاجة ماسّة لتتبّع ألفاظ اللغة، ورصد معانيها في كتاب شامل هو المعجم خدمةً لهذا الغرض الجليل.

ب- المرحلة الثانية: الرسائل اللغوية:

إنّ جذور المعاجم العربية المتخصّصة في التأليف العربي قديمة؛ تعود إلى "الرسائل الكثيرة التي احتوت كلّ واحدة منها على ألفاظ خاصة في مجموعات دلالية صغيرة تتعلّق كلّ منها بموضوع مفرد في موضع مفرد، وهي رسائل من صميم الحقول الدلالية، وإن لم يشر القدماء إلى المصطلح"[35]، وهذه المرحلة "يمكن إرجاع تاريخ ظهورها إلى أواخر القرن الثاني الهجري مع رسائل الموضوعات، مثل رسالة خلف الأحمر (180هـ) في جبال العرب، والخيل للنضر بن شميل (204هـ)، والأضداد لقطرب (206هـ)"[36].

وكانت تهدف هذه الرسائل اللغوية إلى جمع الألفاظ "الدالة على أجزاء جسم الإنسان أو الحيوان من خيل، وإبل، وحشرات وغيرها من الكائنات التي عاشت في الجزيرة العربية، سواء النافعة منها أو الضارة وما يتصل بها في أطوار حياتها المختلفة من حيث أعمارها، وأمراضها، وصحتها"[37].

فهذه الرسائل "يمكن أن تعدّ من بعض الوجوه رسائل في المصطلحات الدالة على أعيان النبات ومحيطه، وعلى أصناف الحيوان وأجزائه"[38]، وفي هذا السياق يرى أحد الباحثين أنّه "لو طبقنا مفهوم المعجم المتخصّص الحديث على التراث المعجمي العربي القديم، لأمكن أن شمل مفهومه كتب الموضوعات اللغوية، كالنوادر والأضداد والغريب، وشرح غريب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ورسائل الموضوعات المعرفية، التي تتناول الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الظواهر المعرفية الأخرى"[39]، فالأصمعي- مثلاً- يعدّ من رواد هذا التأليف؛ فقد خلف عدة رسائل مستقلة لم يبق منها سوى سبعة هي: الإبل، الخيل، الشاء، الوحوش، الفرق، خلق الإنسان، النبات والشجر[40].

وكلّ هذه الرسائل تعدّ مصدراً هاماً للمعاجم المتخصّصة اللاحقة؛ فالأصمعي اعتمد "في عرض المفردات طريقةً حديثةً ينادي بها في الوقت الحاضر رواد المصطلحية (علم المصطلحات) في (Infoterme iso) من خلال:

- تقسيم مصطلحات المادة العلمية الواحدة بحسب موضوعاتها الفرعية.
- اتخاذ المفاهيم العلمية لا مصطلحاتها أساساً في الترتيب والتوثيق والشرح"[41].

ومما سبق يمكن القول أنّ الرسائل اللغوية تشكّل مرحلةً هامةً في بناء المعاجم المتخصّصة العربية.

ج- المرحلة الثالثة: معاجم الموضوعات:

تمثّل معاجم الموضوعات مرحلةً مهمة في بلورة المعاجم المتخصّصة التراثية؛ وخير دليل على ذلك كتاب الغريب المصنّف لـــلأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هــ)، والذي تتوزع مادته إلى خمسة وعشرين موضوعاً، يتفرع كل منها إلى موضوعات جزئية وصل عددها الإجمالي إلى تسعمائة (900) موضوع، وجاء تصنيف حقولها على هذا النحو:

كتاب خلق الإنسان، كتاب النساء، كتاب اللباس، كتاب الأطعمة، كتاب الأمراض، كتاب الدور والأرضين، كتاب الخيل، كتاب السلاح، كتاب الطيور والهوام، كتاب الأواني والقدور، كتاب الجبال، كتاب الشجر والنبات، كتاب المياه والقنى، كتاب النحل، كتاب السحاب والأمطار، كتاب الأزمنة والرياح، كتاب أمثلة الأسماء، كتاب أمثلة الأفعال، كتاب الأضداد، كتاب الأسماء المختلفة للشيء الواحد، كتاب الإبل، كتاب الغنم، كتاب الوحوش، كتاب السباع، كتاب الأجناس[42].

هكذا يتضح أنّ هذا اللون من المعاجم أثّر "منهجياً فيما تلاه من معاجم فنية وعلمية، يتجلّى ذلك في منهج التصنيف الذي طبع بميسمه الإيجابي منهج جمع الألفاظ، وقد وظّف منهج التصنيف في معظم أصناف المعاجم المتخصّصة اللاحقة بين القرن الرابع والثامن الهجريين"[43].

وعليه يبرز جلياً اعتماد المعاجم المتخصّصة على معاجم الموضوعات؛ فلقد كانت المعاجم العربية المتخصّصة متأثِّرة في تصنيفها بتصنيف معاجم الموضوعات، ولهذا كان ترتيبها وطريقة تعريفها متفقة مع طرق الترتيب والتعريف التي كانت مستعملة في الأعمال المعجمية التي سبقتها؛ فقد أفادت معاجم الموضوعات المعاجم المتخصّصة في جانبين هامين: فهي مصادر غنية للمصطلحات العلمية من جهة، كما أنّها قدّمت منهجًا للتصنيف على أساس المفاهيم من جهة أخرى.

د- المرحلة الرابعة: المعاجم المتخصّصة:

لقد ظهرت المعاجم المتخصّصة العربية في شكلها النهائي ابتداءً من القرن الرابع الهجري، فكان كتاب "مفاتيح العلوم" للخوارزمي الكاتب (ت387ه) أوّل معجم عربي حقّق شروط هذا النوع المعجمي؛ والذي حدّد غايته بقوله: "يكون جامعًا لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمِّنًا ما بين كلّ طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات، التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاصرة لعلم اللغة"[44].

فواضح للعيان أنّ الخوارزمي هو أول من أرسى دعائم الصناعة المعجمية المتخصّصة في التراث العربي؛ إذ تنبّه إلى أنّ المعاجم اللغوية لم تعد تستجيب لحاجات المتعلّم، ولاسيما المُقبِل على العلوم الجديدة آنذاك، فقصد إلى جمع المصطلحات المتداولة بين أهل هذه العلوم في كتاب واحد يغني عن التعدد المصطلحي الذي شهدته اللغة العربية في هذه المرحلة نتيجة تعدد المواضعات؛ ومن ذلك لفظة الرَّجعة "فإنّها عند أصحاب اللغة المرة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن، وعند المتكلّمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته، وعند الكُتّاب حساب يرفعه المُعطي في العسكر لطمَعٍ واحدٍ، وعند المنجّمين سير الكواكب من الخمسة المتحيرة على خلاف نضد البروج"[45].

ولهذا صمّم مصنّفه وفق خطة واضحة المعالم؛ سواء من حيث نوعية المداخل، أو طريقة ترتيبها، أو منهج تعريفها، فمداخل المعجم مصطلحات وهي "مفاتيح العلوم"؛ ولعلّ هذا ما يفسّر سبب تسمية المعجم، على اعتبار أنّ المصطلحات العلمية غير الألفاظ اللغوية، فالأولى خاصّة بأصحاب الصناعات والثانية عامّة تشمل أصحاب اللغة كلّهم.

أمّا الترتيب المعتمَد في المعجم فهو الترتيب الموضوعي؛ فالمعجم مقسَّم إلى مقالتين:

- **الأولى: تتناول علوم العرب:** وصنّفها في ستة (6) أبواب تتوزّع بدورها إلى اثنين وخمسين (52) فصلاً في مجالات: الفقه- الكلام- النحو- الكتابة- الشعر والعروض- الأخبار.
- **الثانية: تتضمّن علوم العجم:** وتفرعت إلى تسعة(9) أبواب تتجزّأ مجتمعةً إلى واحد وأربعين (41) فصلاً في ميادين: الفلسفة، المنطق، الطب، الأرثماطيقي (الحساب)، الهندسة، علم النجوم، الموسيقى، الحيل (الميكانيك)، الكيمياء.

ومما سلف يمكن القول أنّ "مفاتيح العلوم" يشكّل معجماً مهماً للعلوم التي ذكرها الخوارزمي في أبواب مصنّفه، إذ يصلح كل باب منها أن يكون معجماً متخصّصاً مستقلاً في مجال معرفي معين، وبخاصة المقالة الثانية منه؛ والتي تعكس صورةً ناصعةً لتطور العلوم عند العرب في هذا العصر الذهبي.

ولقد توالت بعد ذلك معاجم متخصّصة أخرى؛ سواء أكانت في ميدان واحد كمعاجم الطب، والنبات والصيدلة، مثل: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، أو متعددة المجالات كما في: التعريفات للشريف الجرجاني (ت816هـ)، والكليّات للكفوي (ت1094ه)، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (المتوفى بعد 1158ه).

خاتمة:

مما تقدم يتضح جلياً أنّ التأليف المعجمي التراثي المتخصّص ظهر نتيجة خمسة عوامل، ساهمت جميعها في ظهور هذا اللون المعجمي في الثقافة العربية، ولعل أهمها الدافع الديني؛ فلقد جاءت رسالة الإسلام لتدعو البشرية جمعاء إلى العلم والتدبّر، وكان دور الدافع اللغوي أساسيًا في وضع اصطلاحات جديدة لما يتم ابتكاره في شتى الميادين، ومع مرور الزمن كان للعاملين السياسي والاجتماعي أثر بالغ في توليد ثروة مفرداتية جديدة أغنت العربية، وأثْرت معجم متكلميها، كما اضطلع العامل الثقافي مُمثلاً في ترجمة العلوم والفنون بمهمة تعريب العلوم، ونقل المعارف- نظرية وتطبيقية- إلى اللغة العربية، فكانت النتيجة ظهور زاد مصطلحي غرير، سرعان ما صُنف في مؤلفات مستقلة، منها ما اقتصر على علم بذاته، ومنها ما توسّع ليشمل عدة معارف في آن واحد.

كما أنّ مراحل تكوين هذا النمط المعجمي عرفت أربعة أطوار متتالية؛ كان أهمها كتب تفسير القرآن التي اهتمت بشرح المدلولات الجديدة التي حملتها الألفاظ العربية مع نزول القرآن الكريم، وبعدها ظهرت الرسائل اللغوية التي ركّز أصحابها على جمع الكلمات التي تدور حول موضوع دلالي واحد، في حين كانت مرحلة "معاجم الموضوعات" أشبه بالمعاجم المتخصّصة، مع الاختلاف في المحتوى؛ إذ تضمنت معاجم الموضوعات ألفاظ اللغة العامة، في حين اقتصرت المعاجم المتخصّصة على مصطلحات العلوم والفنون فقط، وأخيرًا ظهر المعجم المتخصّص العربي مكتملاً، من خلال نموذج "مفاتيح العلوم" للخوارزمي، الذي حدّد بوضوح الأسس المنهجية لبناء هذا النمط المعجمي، وبعده توالت الاجتهادات، واستفاد اللاحق من السابق.

الهوامش:

1- أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، ط:1، 1418ه- 1998م، ص:35.

2- علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط:1، 2003م، ص:215.

3- إبراهيم بن مراد، المعجم العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، 1993م، ص:6.

4- إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، ، ص:80.

5- ينظر: حسن ظاظا- كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط:2، 1410هـ- 1990م، ص:147.

6- ينظر: المعجم العلمي العربي المختص، الجيلالي حلام، ندوة "المعجم العربي المختص"، جمعية المعجمية العربية بتونس، 17- 19 أفريل 1993، أشرف على نشره: إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، 1996، ص:58.

7- سورة العلق، الآية 7.

8- أحمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة، ومؤسسة التراث، الرياض، السعودية، ط:1، 1423ه-2002م، ص:1032-1034.

9- أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، بيروت، 1964م، ص:47.

10- ينظر: إبراهيم السامرّائي، في المصطلح الإسلامي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1990م، ص:10.

11- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ج:1، ص:139-140.

12- ينظر: الأمير مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، دار صادر، بيروت، لبنان، ط:3، 1416هـ-1995م، ص: 23-24.

13- الاقتراض اللغوي: ينقسم إلى قسمين، هما: المعرّب والدّخيل؛ وذلك اعتمادا على المعيار التاريخي؛ فالمعرّب يضمّ الألفاظ التي دخلت العربية إبّان عصر الاحتجاج، أمّا الدخيل هو ما اقترضته العربية من لغة أخرى في مرحلة تالية لعصر الاحتجاج، ينظر: أبو منصور الجواليقي، المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم، تحقيق: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1419ه-1998م، ص:6.

14- أحمد عبد الرحمن حمّاد، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1403هـ- 1983م، ص: 102.

15- ينظر: حلمي خليل، المولّد في اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط:2، 1405ه- 1985م، ص:267-268.

16- ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:9، 1981م ص: 320.

17- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:328.

18- ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، مكتبة الخياط، بيروت، لبنان، د ط، ج:1، ص: 142.

19- ينظر: سميح أبو مغلي، تعريب الألفاظ والمصطلحات وأثره في اللغة والأدب، دار البداية، عمّان، الأردن، ط:1، 1432هـ-2011م، ص:176.

20- الأمير مصطفى الشهابي، المصطلحات العلميّة في اللّغة العربية في القديم والحديث، ص:24.

21- ينظر: سميح أبو مغلي، تعريب الألفاظ والمصطلحات وأثره في اللغة والأدب، ص:179.

22- ينظر: إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، ص:32.

23- ينظر: إبراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي في كتب الطبّ والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، 1985م، ج:1، ص:151-254.

24- رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي، ط:2، القاهرة، مصر، 1999 م، ص: 229.
25- سورة عبس، الآية 31.
26- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ج:1، ص:131.
27- سورة فاطر، الآية 1.
28- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج:1، ص: 113.
29- ينظر: إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتّى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، ص:19.
30- رجب عبد الجواد إبراهيم، دراسات في الدلالة والمعجم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 139.
31- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج:1، ص: 156.
32- ينظر: المصدر نفسه، ص: 143.
33- خالد بن صالح بن محمد الغراني، جهود الصحابة في اللغة- ابن عبّاس أنموذجاً، دار الكتاب العالمي، عمّان، وعالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط:1، 2006 م، ص:295.
34- محمد علي عبد الكريم الرديني، المعجمات العربيّة- دراسة منهجيّة، دار الهدى، الجزائر، ط:2، 2006م، ص:30.
35- أحمد عزّوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 2002م، ص:22.
36- الجيلالي حلاّم، المعجم العلمي العربي المختص، ندوة "المعجم العربي المختص"، ص:55.
37- حلمي خليل، مقدمة لدراسة التراث المعجمي، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2003م، ص:106.
38- إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتّى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، ص:25-.26
39- علي توفيق الحمد، المعجم العربي القديم المختصّ ومنزلته في وضع المعجم العربي المعاصر المختصّ، ندوة "المعجم العربي المختص"، ص:91.
40- ينظر: رمضان عبد التوّاب، فصول في فقه اللغة، ص:231.
41- علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ص:.50
42- ينظر: رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص:259.
43- جواد حسني سماعنة، الخصائص العامة لمعاجم الموضوعات وتأثيرها في المعاجم المصطلحية اللاحقة، اللسان العربي، العدد 53، 2002م، ص:.154
44- الخوارزمي الكاتب، مفاتيح العلوم، دراسة وتصدير: عبد الأمير الأعسم، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1428ه- 2008م، ص:11.
45- المصدر نفسه، ص:12.